في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٤ —

مع الأدباء العلميين

تحدثت في آخر فصل وقفت عنده (من هذا البحث[1]) عن عالم فلسطين الرياضي الأستاذ قدري حافظ طوقان ، ولم أبلغ نهاية التعريف بآثاره ، لضيق في المجال الذي أعددته (يومذاك) ولذا فإنني أقف اليوم بالقارىء الكريم (وقفة يسيرة) ، عند أثر قيم من آثاره ، وهو كتابه « تراث العرب العلمي » في الرياضيات والفلك . ولعلنا نقدر مبلغ عنايته باخراجه ، حين نسمعه يقول في مقدمته :

« شغلت نفسي بهذا الكتاب أكثر من عشر سنين ، وهو خلاصة بحث مرهق ودراسات مضنية ، اعتمدت فيها على مظان عديدة قديمة وحديثة ، عربية وافرنجية ، ومخطوطات نفيسة حصلت عليها بمساعدة بعض الأصدقاء ، من القاهرة وطنجة وتطوان والقدس ... » .

وقد جعل الأستاذ (طوقان) كتابه في قسمين ، الأول منهما يحتوي على سبعة فصول ، ستة منها تبحث في الرياضيات قبل الإسلام ، ومآثر العرب في الحساب والجبر ، والهندسة والمثلثات والفلك . والسابع يتناول الرياضيات في (الشعر العربي) وهو فصل طريف لعله الأول من نوعه ، أحصى فيه ماقاله شعراء العربية في الجاهلية والإسلام من الشعر الرياضي . فأورد شعر « زرقاء اليمامة » في سرب من الحمام ، أبصرته فأحصته عدداً فقالت :

ليت الحمام ليَهْ ونصفه قدَيْهْ
إلى حمامتيَهْ صار الحمام ميَهْ

وهي مسألة حسابية معقدة (كما ترى) ، بسطتها (حذام معجزة الدهر في قوة الأبصار) بقالب شعري لطيف .

كما أورد في ذلك الفصل أيضاً ، قول الشاعر الرياضي المرح الإمام أبي القاسم البديع الأسطر لابي حين يتغزل فيقول :

وذي (هيئة) يزهو بخال (مهندس)
أموت به في كل حين وأبعث
(محيط) باوصاف الملاحة وجهه
كأن به (اقليدس) يتحدث
فعارضه (خط استواء) وخاله
به (نقطة) والخد (شكل مثلث)

ولقد استلفت نظري (هنالك) أرجوزة « ابن الياسمين » التي جمع فيها بين الأدب والرياضيات ، فعرف علم الحساب والجبر وشرحهما ومثل عليهما شعراً . ومن ذلك قوله في تعريف الجبر :

على ثلاثة يدور الجبرُ : (المال) و (الأعداد) ثم (الجذر)
فـ (المال) : كل عدد مربع و (جذره) : واحد تلك الأضلع
و (العدد المطلق) : ما لم ينسب للمال أو للجذر . فافهم تصب
و(الجذر)و(الشيء)بمعنى واحد كالقول في لفظ أب ووالد ...

ثم يمثل عليه في (حل معادلة) كان قد أسلف ذكرها في أقسام المعادلات فيقول :

فـ (ربع)النصف من (الأشياء) واحمل على (الأعداد) باعتناء
وخذ — من الذي تناهى — (جذره)

ثم انقض (التنصيف[1]) تفهم سره

ويحصي (الأستاذ طوقان) بعد ذلك شعراً ماأعذبه وأطلّه ، كثيراً ماتمثلت به لطلابي (في دروس البلاغة) ، دون أن أتنبه لما فيه من البراعة في استخدام الألفاظ ، مما استنبطه الأستاذ من معانيها في الرياضيات والفلك .

وأما القسم الثاني من الكتاب فيحتوي تسعة فصول ،

---

(١) لنشر ذلك الفصل في العدد ٦٨٩ من الرسالة الزاهرة ، ولمل كلمتي (على هامش الأدب في فلسطين) رداً تقبله المربية الفاضلة الأديبة (ليلى عبد السلام من المنصورة) ، على كلمتها التي تكرمت بتوجيهها الى والى آخرين في العدد ٦٩٦ من الرسالة أيضاً .

(١) تحل هذه المعادلة (حسب الطرق المعروفة في كتب الجبر) على الصورة الآتية :

$س^2 + ١٠ س = ٧٥$ ، $س^2 + ١٠ س + (\frac{١٠}{٢})^2 = ٧٥$
$+ (\frac{١٠}{٢})^2$ ، أي أن $س^2 + ١ س + ٢٥ = ١٠٠$ ، أي أن
$(س + ٥)^2 = ١٠٠$ ∴ $س + ٥ = ١٠$ ∴ $س = ٥$

يسرد فيها سير العظماء من الرياضيين والفلكيين ، وانتاجهم العلمي ، ومؤلفاتهم وانتقالها إلى أوربة ، وأثرها في تقدم العلوم فيما بعد .

وتتجلى في الأستاذ روح العالم العامل بعلمه ، حين يقول لك : إنه توخى في هذا الكتاب « الإخلاص للحق والحقيقة وإنصاف حضارة العرب ، والكشف عن أمجادهم الفكرية في الرياضيات والفلك ... » .

وما دمت في صدد العلم (حين ينسلك في نطاق الأدب) ، فلا بأس من أن أذكر (علماء متأدبين) آخرين ساروا في هذا السبيل ، فقطعوا فيه شوطاً محموداً ، وألفوا فيه ما لا يتيسر من غير جهد ، ولا يبلغ بعد هذا الشأو من الجودة إلا نضوج مكتمل.

وبين يدي (أشتات أنباء) عن ثلاثة من هؤلاء (العلماء) وكلهم مارس صناعة التعليم عمراً من عمره ، ورعا كان لذلك أثر بين في بعض انتاجهم ، وبعض وجهات نظرهم. وأول هؤلاء الثلاثة:

الأستاذ محمد أديب العامري . وقد كان إلى أمد (ليس بعيداً) مديراً لكلية السلط ، وكانت له في ذلك العمل تجارب كثيرة ، فألف (بوحي منها) كتباً لتدريس العلوم الطبيعية ، في صفوف مختلفة من مراحل التعليم ، طبع بعضاً منها والبعض الآخر في أثره

وتتألف هذه السلسلة من قسمين ، الأول منها (مبادئ حفظ الصحة) للمراحل الابتدائية المتوسطة ، والثاني (مبادئ العلوم) وينقسم إلى أجزاء تزامل الطالب حتى تبلغ به المرحلة الثانوية . وترتكز هذه الكتب (في سائر أجزائها) ، على أسلوب محدث وطريقة مبتكرة ، يراعى فيها الانتقال من التدرج في الوصف ، إلى التعريف والتحديد فالاستقراء والاستنباط .

كما ألف كتابه (فصائل النباتات الشهيرة) للمراحل الثانوية العالية ، وصرف في إعداده مجهود (أعوام ثلاثة) في البحث والدرس ، والإقتباس عن أشكال الطبيعة مباشرة ، وهذا الكتاب وحيد في أسلوبه وطريقة تنسيقه : يشتمل على ما يفتقر اليه الطالب العربي من أركان هذا العلم ، وسائر تفصيلاته .

كما ترجم بوحي من ذلك العمل (أيضاً) ، كتاب (الكيمياء العملية) للدكتور « كلوز Close » رئيس دائرة الكيمياء في الجامعة الأمريكية . فأكمل بذلك جانباً كبيراً من النقص الذي يفتقر اليه الطالب العربي في هذا الباب ..

وله فيما عدا ذلك إنتاج آخر ، يدفعه اليه ميله (السياسي الاجتماعي) ، وهذا الميل متأصل في نفسه ـ رغم تخصصه الجامعي في دراسة علم الحياة ـ وطالما استحوذ عليه ، فاذا هو منسرب في مسالكه ، منساق إلى أهدافه ، متطلع إلى مراميه ...

وهو إبان هذا الاستسلام المطلق ، يكتب في (القصة) آناً ، ويكتب في (فلسفة الحياة) آناً آخر . وحين أعرفه لك في الحال الأول ، أقفك عند كتابه « شعاع النور » ، لكي تستعرض معي (متمهلا) هذه الفقرة من مقدمته إذ يقول فيها : « ... إن هنالك شعاعاً من النور ينتظم سيرة الحياة ، وهذا الشعاع ذاته هو الذي يومض في نفوس هؤلاء الناس ، الذين أقدمهم اليك وأصلهم بك ، ولولا هذا الوميض الذي يستمد نوره وحرارته من طبيعة الحياة ، الحياة الخالدة المتسامية ، لما كان سبيل هؤلاء الناس إلا أن يتلاشوا في العدم ، ولكنهم لا يتلاشون .. »

وأما قصص هؤلاء الناس (الذين يصلهم بك) فانها ـ يا أخي القارىء ـ ليست من هذا الطراز الذي ألفنا قراءته وتكراره ، ولكنها ضرب جديد في القصص ، (جديد إلى أبعد ما في خيالك من تصوير للجديد) ، ما رأيت من مثلها فأقربها اليك تشبيها ، ولكني أصفها . وأين الخبرُ من الخُبر ؟!:

إنك لو وقفت حيال هذه القصص ، لألفيتها قائمة على التحليل النفسي للطبيعة البشرية ، وعلى تصوير الانفعالات المستندة إلى العوامل الموروثة ، التي تمثل نوازع الإنسانية العميقة تمثيلا صادقاً . وهو في خلال ذلك كله يستهدف الإصلاح الاجتماعي ، شاملا من جميع نواحيه .

وله في هذا الباب قصة أخرى عنوانها (سليم افندي) ، وهي تحليل شامل لما يعترض النفس الإنسانية من اضطراب وقلق ، ولما يؤدي اليه مركب النقص من تصرفات وأوضاع ، والقصة في إجمالها وتفصيلها تنحصر في دائرة القصة السالفة من جميع نواحيها .

وحين أعرف لك الأستاذ العامري في الحال الثاني (أي حين يكتب في فلسفة الحياة) ، أقفك كذلك عند كتابه (نحو الحياة) . وهذا الكتاب سرد من التفاؤل المطلق ، مرتكز على المحاكمة والإستقراء ، وقائم على منطق التدرج . فهو يرى فيه أن طبيعة الحياة إيجابية ، وأنها تتقدم من تلقاء نفسها باطراد إلى الأمام ، وأن مستقبل البشرية إلى خير ، على الرغم مما يبدو في

فى جوها ـ وما بدا إلى الآن ـ من اكفهرار واضطراب . واليك نمطاً يبين لك الأسلوب الذى يلتزمه فى مثل هذا الحال ، وذلك حين يقول :

« ... طبيعة الحياة نفسها تأبى الردة ، الإنسان والحيوان والنبات ، هذه الأحياء كلها تبحث عن الجمال والقوة . والحياة تنتج باستمرار أجيالا أقوى وأجمل ، فلو ركب فى الناس ذوق (من مثل حب القبح) ، ولو كان (الظلم) هو مانهواه الطبيعة البشرية فى قرارتها ، لفكرت أن الحياة يمكن أن تتأخر !!.

الناس اليوم أطول أعماراً من آبائهم الأولين ، والناس اليوم أكثر إحساساً بالكرامة ، وأرفع مستوى فى العيش مما كانوا من قبل . وتوزيع الثروة (وإن يكن اليوم منطوياً على إجحاف) أكثر انتشاراً منه فيما مضى من قريب . والمظلوم اليوم أجرأ وأرفع صوتاً فى المطالبة بحق . وحالتنا الحاضرة — فى بعض البلاد الراقية — خير من بعض صور (المدينة الفاضلة) كما رآها بعض المفكرين .

فالى أية غاية ترمى هذه النزعات الطاهرة ، الخالصة الصادقة التى لاتكبح ؟!... »

وما يزال بين يدى الأستاذ مواضيع مختلفة ، ينصرف لمعالجتها والتفرغ لدرسها ، على رغم المسئولية التى يضطلع بحملها فى (دار الإذاعة الفلسطينية) فى القدس ، ولقد كتب فى الرسالة الغراء وغيرها ، دراسات كثيرة ، فى العلوم والآداب والأبحاث النفيسة ، التى يميل فيها إلى المذهب التحليلى على طريقة (ادلر) .

وله مجموعة مقالات — مما أذاع به أو القاه فى الأندية كلها تحوم حول الأهداف التى أسلفت الإشارة اليها . وهى تقع فى كتاب ضخم جاهز للطبع .

وأما الباحثان الآخران ، فقد ألف أحدهما بوحى (من عمله التدريسى أيضاً) كتباً علمية لمراحل الدراسة الثانوية ، ثم انطلق على سجيته بعد ذلك فاذا هو يكتب فى الأدب حيناً ، فيؤلف فيه أشتاتاً من الأقاصيص ، وألواناً من الدراسات . يعالج فيها جميعاً كثيراً من المشاكل الإنسانية المعقدة ، والأدواء الاجتماعية المستعصية . ثم إذا هو (حيناً آخر) يكتب فى الفلسفة العلمية ويحلق فى أجوائها ، فينتهى من ذلك بمجموعة من الكتب القيمة ، كل واحد منها يتوجه فى سبيل ، وينتهى إلى غاية ، ثم تأتلف أخيراً لتتحد فى ثناياها صورة مشرقة من صور (الأدب العلمى) .

وأما الثانى فقد ألف كذلك (بوحى من عمله التدريسى) ، ولكنه خالف سابقيه فيما ألف ، فخرج من محيط المدرسة إلى محيط الجمهور . وهو محيط أشمل وأعم . سرعان مايثمر التعليم فيه ويؤتى أكله . ثم إذا هو يصنع له من العلم (الحاف المعقد) مادة هينة لينة ، رقيقة الحواشى مهلهلة الأطراف ، هى على حد قول الإمام الثعالبى :

« يكاد الهواء يسرقها لطافاً ، والهوى يعشقها ظرفا . . »

ويكوّن من هذه المادة كتاباً لطيف الحجم عظيم النفع ، مايكاد يخرج إلى (هـذا الجمهور) ، حتى تتخاطفه الأيدى ، وينتشر فى كل مكان ، ويقبل الناس عليه أيما إقبال .

ويلمس هذا الباحث مقدار نجاحه ، فيمضى فى طريقه قدماً ، فاذا هو يعيد الكرة من غير ماتريث ، ويفاجىء الناس بثانى كتبه ، ليظفر بما يترقبه من نجاح ، بعد أن مهد له السبيل إلى تلك الغاية ذلك الكتاب الذى سبقه . ووقف المؤلف بعدها يستعد لإخراج دروس جديدة ، يلحقها بذينك ، ليؤدى رسالته على الوجه الذى ارتضاه .

وأما هذان الباحثان فأولهما : الأستاذ عبد الله الريحاوى ، وثانيهما الأستاذ على شعث . وسوف أحدثك عنهما مفصّلا .

القدس :

محمد سليم الرشدان

« أستاذ التربية وآدابها فى كليتى التجارة والأمة »

إلى الشبـــان الطامحين

هل أنت قانع بحالتك الراهنة ؟ بينما العالم يتسابق فى مختلف الفنون والصناعات التى تدر على محترفيها الثروة والشهرة . إننا ندرس لك صناعات وفنون : الصحافة . التجارة . السينما الموسيقى . اللاسلكى . التليفون الصابون . المطور . الزجاج . الدباغة . التنويم ... الخ أطلب كتابنا الإيضاحى نظير ٢٠ مليما بالعنوان الآتى :

مدارس الفنون والصناعات الدولية

٧ شارع مجلس النواب . مصر تليفون ٥٧٣٨١